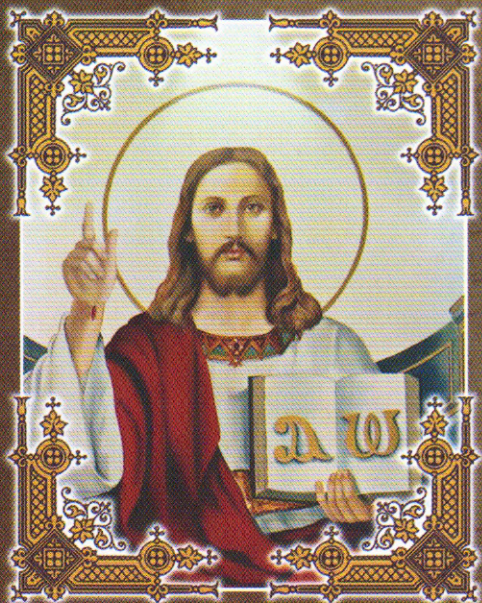


حياة القداسة



لنياطة الحبر الجليل الانبا سارافيم
 أسقف اللاساعيلية وتوليها

حياة القداسة

إعداد

الأنبا سارافيم

أسقف الإسماعيلية وتوابعها

اسم الكتاب:	حياة القداسة
المؤلف:	الأنبا سارافيم (أسقف الإسماعيلية وتوابعها)
رقم الإيداع:	٢٠١١ / ٥٣٥٨
الطبعة:	ثانية (مزيدة) يونيه ٢٠٢٠
المطبعة:	برنتوبرس للطباعة والتوريدات (٠٢٢٤٩١٤١٢٤)



صاحب القداسة والغبطة
البابا تواضروس الثاني
بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية



صاحب النياقة الحبر المجلد
الأنبا سارافيم
أسقف الإسماعيلية ونوابها

حياة القداسة

القديسون أناس سلكوا طريق القداسة ووصلوا إلى السماء. وطريق القداسة مطلوب من الجميع. يقول معلمنا ... بطرس الرسول فى رسالته الأولى: "كُونُوا قِدِّيسِينَ لِأَنِّي أَنَا قُدُّوس" (١بط ١: ١٦). والقداسة هي الحالة الأولى التى خُلق عليها آدم وحواء ثم فقدوها بالخطية. إذاً القديس هو الإنسان الذى يجاهد بموازنة النعمة الإلهية للرجوع إلى حالة القداسة الأولى التى فُقدت بالخطية. أي أن القداسة هي الوضع الأساسي والصحيح للإنسان، وأما الخطية فهي الدخيلة عليه. والقداسة ليست شكلاً من الخارج أو مجرد مجموعة ممارسات روحية أو التزامات أخلاقية، إنما هي أساساً نقاوة القلب من الداخل. أي تنقية القلب من الخطية ومن آثارها المدمرة. وكلما يتنقى القلب كلما تزداد رؤيته لله بوضوح. لذلك يقول معلمنا بولس: "اتَّبِعُوا السَّلَامَ مَعَ الْجَمِيعِ، وَالْقَدَاسَةَ الَّتِي بِدُونِهَا لَنْ يَرَى"

أَحَدُ الرَّبِّ". (عب ١٢: ١٤). ويفسر السيد المسيح هذا الأمر بوضوح عندما يقول: "طُوبَى لِلْأَنْقِيَاءِ الْقُلُوبِ لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ" (مت ٥: ٨).

إذا نقاوة القلب هي غسله من أوزار الخطية باستمرار بالتوبة، وكلما يتنقى القلب فإنه يتعامل مع الله بوضوح أكبر ويتمتع بمحبة الله بقدر أعظم، وهذه هي القداسة. القديس إنسان يجاهد ليملاً قلبه بمحبة الله وبالتالي بمحبة الناس، ثم يعبر عن هذه المحبة بأشكال كثيرة جداً مختلفة، لكن تبقى القداسة أساساً هي نقاوة القلب من الداخل.

إن جوهر القداسة واحد، ومطلوب من الجميع، أما مظاهرها الخارجية فتختلف كثيراً من إنسان لآخر. جوهر القداسة، أو جوهر نقاوة القلب، هو المحبة، الاتضاع، الصوم، التوبة والاعتراف، الجهاد الروحي، الصلاة، قراءة الإنجيل، تناول من الأسرار.... وهذه أمور لا يستطيع إنسان أن يصل الى القداسة بدونها. أما كيف

تظهر هذه القداسة من الخارج فهذا نتيجة وليس هو أساس القداسة. لذلك يوصي الآباء الحاذقون أن لا نقلد القديسين في مظاهرهم الخارجية إنما نتمثل بجوهر الفضيلة الذى يتحلون به، وهذا هو أساس القداسة. ربما يختلف القديسون في المظاهر الخارجية من لبس أو أكل أو تصرفات أو أماكن إقامة أو خلافه، إنما جوهر الفضيلة في أعماقهم واحد، وهو السعي وراء نقاوة القلب ومحبة الله والناس.

ونقاوة القلب تأتي من نقاوة الأفكار، وهذه تأتي بدورها من تقديس الحواس. "وَأَمَّا الطَّعَامُ الْقَوِيُّ فَلِلْبَالِغِينَ (القديسين)، الَّذِينَ بِسَبَبِ التَّمَرُّنِ قَدْ صَارَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُّ مُدَرَّبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ" (عب ٥: ١٤).

إذا القداسة لا تُقتنى في يومٍ وليلة. إنما هي طريق العمر كله، وكلما صعد الإنسان درجة يجد أمامه درجات ودرجات. القديسون يقدمون لنا نماذج حية للسعي فى طريق القداسة، وللنمو المستمر فى هذا الطريق.

لذلك أصبح من المهم جدًا أن نطلع على سير القديسين لكيما نتعلم منهم كيف سلكوا هذا الطريق. أعود وأؤكد أن هدف القراءة ليس التشبه بهم من الخارج أو تقليد طريقة حياتهم، إنما البحث عن أعماق الفضيلة الداخلية والتدرب على اقتنائها، ثم يأتي الشكل الخارجي بما يتناسب مع الشخص وظروفه. الشكل الخارجي مظهر زائل إنما جوهر الفضيلة هو الخالد والباقي. لذلك لا نتعجب عندما نجد قديسين من مختلف طبقات الشعب ومن مختلف المستويات العلمية أو الثقافية أو الوظيفية. السماء تذر بكل أنواع القديسين وليس فقط من نعرفهم أو من نقرأ سيرهم. الكنيسة تقدم لنا مجرد نماذج من القديسين وليس كل القديسين.

ربما يكون هناك إنسان عادي جدًا في مظهره الخارجي أو في حياته المنظورة، ولكن تكون له درجة قداسة عالية في عين الله. وأبرز مثال لذلك لعازر المسكين الفقير المريض في مثل لعازر والغني. آباء الاعتراف الحاذقون يضعون الاطلاع

على سِير القديسين جزءًا هامًا جدًا من القانون الروحي لأولادهم الروحيين.

يقول السيد المسيح للنفس التي تسعى وراء القداسة:
 "إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيْتَهَا الْجَمِيلَةَ بَيْنَ النِّسَاءِ فَأَخْرِجِي عَلَى آثَارِ
 الْغَنَمِ وَازْعِي جِدَاءَكَ عِنْدَ مَسَاكِنِ الرُّعَاةِ" (نش ١: ٨). ويقول
 الكتاب: "أَذْكُرُوا مُرْشِدِيكُمْ الَّذِينَ كَلَّمُوكُمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ.
 انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سِيرَتِهِمْ فَتَمَثَّلُوا بِإِيمَانِهِمْ" (عب ١٣: ٧).
 "أَطِيعُوا مُرْشِدِيكُمْ وَاخْضَعُوا، لِأَنَّهُمْ يَسْهَرُونَ لِأَجْلِ
 نُفُوسِكُمْ كَأَنَّهُمْ سَوْفَ يُعْطُونَ حِسَابًا، لِكَيْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ
 بِفَرَحٍ، لَا آتِينَ، لِأَنَّ هَذَا غَيْرُ نَافِعٍ لَكُمْ" (عب ١٣: ١٧).

الرعاة عندما يضل منهم جمل يتتبعون أثر قدمه ولا بد
 وأن يعثروا عليه. لذلك من المهم جدًا أن نتمثل بسِير وأقوال
 ونصائح القديسين ونتدرب على ذلك تحت إشراف الأب
 الروحي. فالحياة الروحية يسمونها "علم العلوم" أو

"فن الفنون"، تحتاج إلى معلم وإلى مدرب يقودني في طريق القداسة.

لهذا نحن ندعو القديس "أنبا" وهي أصلاً "أبّا"، أي إنه لي بمثابة الأب الذي أضعه أمامي كنموذج أتتلمذ عليه. هو إنسان سلك طريق القداسة قبلي ونجح بنعمة الله ووصل إلى السماء. هو الذي سلك كما ينبغي أن يسلك كل مسيحي، ووصل إلى الغاية التي يتمناها كل مسيحي فلا بد من الاقتداء به.

لذلك نحن نحب القديسين ونكرمهم ونمتدح سيرهم وندرسها ونتلوها في كنائسنا ونمجدهم ونعيّد لهم ونضع رفاتهم وأيقوناتهم في الكنائس ونسمي الكنائس على أسمائهم ونسمي أولادنا وبناتنا على أسمائهم ونبخر أمام أيقوناتهم ونزور أماكن إقامتهم ونطلب شفاعتهم وبركاتهم. وهم من طرفهم يحبوننا ويتشفعون فينا ويسرعون لنجدتنا ويفرحون بتوبتنا ويدافعون عنا (سحابة الشهود) ويتعاطفون معنا

في كل ظروف حياتنا. يجب أن تكون هناك علاقة قوية بيننا وبين هؤلاء القديسين الذين على الأرض والذين انتقلوا إلى الفردوس. علاقة محبة وثقة ودالة. علاقة بنوة وتلمذة حقيقية. نعرف سيرهم ونحكي عنها ونتأملها ونحدث أولادنا عنها، ونعلم أولادنا صداقة القديسين. نستخرج الدروس الروحية المفيدة ونتدرب عليها ونراجع أنفسنا على ذلك. نحن لنا إيمان وثقة أن أرواح القديسين في الفردوس تسمعنا وتتعاطف معنا وتحبنا. بل ونستطيع أن نقول أنها تحس بنا وهي في السماء أكثر مما كانوا على الأرض تحت ثقل الجسد وكثافته وتحت قيود المكان والزمان والظروف. هم الآن أرواح طاهرة حرة من رباطات الجسد ممثلة محبة لله وللناس المخلوقين على صورة الله.

يحكي "بستان الرهبان" عن راهب شاب كان يبيع عمل يديه في المدينة وتعرض لتجربة صعبة جداً تهدد عفته، فصرخ "يا إله أبي أعني"، وللوقت اختطف ووجد نفسه في الإسقيط. فاذا كانت دالة الأب الروحي وهو ما يزال يعيش

على الأرض هكذا قوية ومنقذة، فكم وكم تكون قوة دالة
القديسين الذين انتقلوا إلى السماء وتحرروا من قيود الأرض
إلى الأبد.

قصة واقعية أخرى تحكي عن أم فاضلة انتقلت
إلى السماء وتركت ابنًا وحيدًا. وكان ذلك الابن محاميًا.
وحدث في يوم أنه فقد ملفًا هامًا لقضية خطيرة. وكاد ذلك
أن يعرضه لمشكلة كبيرة جدًا. فصلى بدموع لأمه وطلب منها
أن تبحث معه عن الملف المفقود كما كانت تفعل
في حياتها على الأرض. وإذ به يحلم بأمه في تلك الليلة وهي
تقول له: الملف في المكان الفلاني. واستيقظ الشاب منزعجًا
وأسرع إلى ذلك المكان وبالفعل وجد ملفه الضائع.

قصة واقعية أخرى تحكي عن زوج فاضل انتقل
إلى السماء وترك وراءه أرملة مسكينة لها أربع بنات.
وفي يوم تضايقت الأرملة جدًا وبكت بدموع متوسلة لزوجها
المنتقل أن يتدخل لحل المشكلة كما كان يفعل سابقًا. وإذ بها

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

تحلم بزوجها في تلك الليلة يأتيها ويخبرها عن مكان خفي في المنزل كان يضع فيه مبلغاً من المال للضرورة. وإذ بالزوجة تستيقظ منزوعة وتجري إلى ذلك المكان لتجد المبلغ الذي يفك ضيقها فتشكر الله.

الأبرار الذين انتقلوا إلى السماء يواصلون محبتهم لنا واهتمامهم بنا. لذلك ما أجمل أن نوطد هذه العلاقة الروحية بهم. وباليتنا نطبق فضائلهم في حياتنا اليومية.

القديسون يقدمون لنا نماذج مختلفة كثيرة للقداسة. ونجد في سيرهم كل أنواع وأشكال الفضائل المسيحية في صورة حية واقعية. لذلك نسمي سيرهم "بستان القديسين". وبرغم أنهم تدربوا على كل أنواع الفضائل، لأن الفضائل ترتبط بعضها ببعض، إلا أن كل قديس ربما تميز بفضيلة أو أكثر بشكل أوضح. مثلاً القديس الأنبا موسى الأسود تميز بحياة التوبة القوية جداً التي نقلته من حياة الخطية إلى حياة البر والقداسة. وتميز القديس الأنبا أرسانيوس معلم

✦ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ✦

أولاد الملوك بمحبة الصلاة طول الليل وحتى مطلع الفجر، كما تميز بحياة الصمت. والقدّيس يوحنا القصير تميز بالطاعة العجيبة والصلاة الدائمة. والقدّيس الأنبا بيشوي تميز بالبساطة ومحبة الكتاب المقدس. وتميز الأنبا مقار الكبير بالمغفرة والستر على الضعفاء، في حين تميز القدّيس إيسودورس بالإرشاد الروحي والأبوة الطويلة الأناة. وهناك من تميزوا بالتمسك بالإيمان القويم والدفاع عنه أمثال القدّيسين أنثاسيوس وديوسقورس وكيرلس الكبير وغيرهم. ومنهم من تميزوا بالبلاغة والوعظ مثل يوحنا ذهبي الفم وباسيليوس وغريغوريوس اللاهوتي. وهناك سائر الشهداء التي لا تُعد ولا تحصى والتي تشمل كل الأجناس والأعمار والطبقات. فالقداسة لا تقتصر على فئة معينة، وليست (حصراً) على شكل معين، ولا تشخص حسب شروط محددة، بل هي كما قلنا حالة داخلية يستطيع كل إنسان أن يقتنمها إذا هو سعى في سبيلها بجدية وبمعونة الله: هي نقاوة القلب من الداخل.

في القديسين نجد رجالاً ونساءً، شباباً وأطفالاً، متزوجين وبتولين ومكرسين ورهباناً وراهبات، نجد بطاركة وأساقفة وكهنة وشمامسة وخداماً ومؤمنين بدون درجات كهنوتية، نجد علماء ومثقفين كما نجد من لا يعرف القراءة والكتابة، نجد أغنياء وملوكاً وأمراء كما نجد فقراء جداً وأناساً معدمين،... السماء ذاخرة بكل الذين أحبوا الله من قلوبهم وأخلصوا في محبتهم له وللناس. فكل إنسان له نصيب في القداسة وفي الخلاص وفي السماء. يقول السيد المسيح "فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ..." (يو ١٤: ٢). أما ما تقدمه لنا الكنيسة بصورة رسمية في كتبها ما هي إلا نماذج بسيطة جداً للقديسين لتمثل بسيرهم. كم من أناس لا يعرف العالم عنهم شيئاً ولهم في السماء مكانة عظيمة جداً عند الله الفاحص القلوب والكلى.

ونحن عندما نطلع على سير القديسين نتعلم من فضائلهم، كما نتعلم من أخطائهم التي ارتكبوها وتابوا عنها، بل ونتعلم حتى من صمتهم العجيب. مثلاً نتعلم الكثير

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

من داود النبي ومن فضائله المتعددة، ونتعلم أيضًا حياة الحرص والتوبة من سقطته الشنيعة. ونتعلم من سليمان الحكيم البعد عن العلاقات التي تفصلنا عن الله. ونتعلم من شمشون عدم الدالة على النساء الغربيات. ونتعلم من بطرس الرسول عدم الاندفاع والاتكال على الذات.

أما القديسون الذين لا نعرف عنهم شيئًا فيعلموننا الاتضاع. ماذا نعرف عن شهداء أخميم وإسنا والفيوم وأنصنا وغيرهم. آلاف من الشهداء لا نعرف شيئًا عن سيرهم ولكنهم معروفون عند الله ومكرمون جدًّا ويلبسون أكاليل المجد والشهادة. كم من أزواج وزوجات وشباب يجاهدون خفية في سبيل الفضيلة ولا نعرف عنهم شيئًا ولكنهم معروفون عند الله ولهم ميراث مجد عظيم في الأبدية. إذًا ليس فقط من تذكرهم الكنييسة هم القديسين لأن مَنْ يستطيع أن يفحص أعماق الإنسان الا الله وحده، وهو القاضي العادل الذي لا يضيع أجر أحد؟!

فمثلاً ذات مرة رأى القديس الأنبا بيشوي في نهاية اليوم راهباً كان صائماً طوال اليوم وكان يترنح وهو سائر فتسائل الأنبا بيشوي في نفسه قائلاً: كيف يارب ستعامل هذا الراهب؟ فجاءه صوت يقول: "سأعامله مثلك تماماً- وكان الأنبا بيشوي صائماً مدة خمسة عشر يوماً- لو أُعطي هذا الراهب النعمة التي أُعطيت لك لصام مثلك تماماً".

كذلك يجب أن نلاحظ أن ما تقدمه الكتب ما هو إلا بعض ما رصده الكُتَّاب من الخارج ولا يمثل سيرة القديس بكل تفاصيلها. يجب أن تكون لنا النظرة الواقعية الواعية، والعين ذات الشفافية، فليس أحد بلا خطية ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض (أوشية الراقدين). القديسون ليسوا أناساً معصومين من الخطأ، إنما أناس جاهدوا في حياة التوبة وناصرتهم النعمة الإلهية فوصلوا إلى درجة عالية من نقاوة القلب.

نلاحظ كذلك أن السير تذكر فقط ما يُرى من الخارج، لكن من يستطيع أن يرصد جهاد هذا القديس أو هذه القديسة من الداخل: الحروب والضعفات والانتصارات والجهادات والسهرة والتأملات وما يدور في الفكر وفي القلب...

من يستطيع أن يرصد النيات والوسائل والأهداف والاشتياقات والعواطف والأحاسيس... كل هذا وغيره مرصود فقط عند الله والله يجازي كل واحد حسب أعماله وظروفه وإمكاناته لأن الله عادل ومحِب ورؤوف.

نقطة أخرى مهمة في قراءة سير القديسين يجب أن نلاحظها، أن سير القديسين غالباً تركز على القديس بعد بلوغه درجة عالية من القداسة، وربما يكون ذلك قد استغرق سنوات عديدة.

فالبناء الروحي لا يتم في عجلة، إنما بصورة تدريجية وهادئة. لذلك يجب أن ندرس ظروف هذا القديس وبيئته

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

وسنه ودرجته لكي نتحسس بصورة أكثر واقعية ما هو مكتوب عنه.

أكثر الذين سجلوا سير قديسينا كانوا من الأجانب الذين زاروا هؤلاء القديسين وهم شيوخ لهم شهرتهم في القداسة، فعكسوا لنا صورة تمثل نهايات سيرهم المقدسة وليس كل السيرة بتفاصيلها وتدرجها .

أقول ذلك لأن كثيرين يصابون بالإحباط بعد قراءة سير القديسين ويستصعبون طريق القداسة وكأنه وقف على أناس معينين فقط. لا، طريق القداسة ملك للجميع بلا استثناء، وكل مسيحي يسلك في طريق نقاوة القلب قدر طاقته وبأمانة هو سالك بالتأكيد في طريق القداسة.

نحن في السماء سنخلع عنا الجسد والألقاب والمراكز والفروق الأرضية... وتبقى أرواح طاهرة كلها تتمتع بالتسبيح والوجود في حضرة الله.

هناك قصة عن عامل في دير أراد الرهبنة، ولكن بسبب اعتلال صحته لم يتمكن من ذلك، إنما اكتفى بالاتفاق مع رئيس الدير أن يشرف على بوابة مزرعة الدير فقط، وأن يجاهد على قدر طاقته في فضائل الرهبنة.

وبعد نياحته أعلن رئيس الدير عن سر هذا العامل الخفي وعن الدرجة الروحية السامية جداً التي وصل إليها.

قديس آخر كان يعمل بواباً في مدرسة طوال حياته. ووضع في قلبه أن يتعامل مع كل طفل بمحبة مسيحية كاملة. وفي آخر النهار يعود الى غرفته الخاصة بجوار البوابة، ويصلي صلواته ويقرأ إنجيله ويقدم توبته بدموع ويصلي لأجل التلاميذ... ثم بعد نياحته بدأوا يحكون عن فضائله وعن المعجزات التي صنعها وكيف أن كثيرين كانوا يرون غرفته مضيئة بنور عجيب بالليل... وبدأت سيرته تنتشر.

وذلك الأخ الذي كان يعمل طباً في الدير، وكان يجاهد في الصلاة الدائمة وفي الوجود الدائم

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

في حضرة الله، وصار يحب كل الناس محبة فائقة، وبعد نياحته نشروا الرسائل الروحية التي كان يكتبها لمحبيه واكتشفوا منها سمو درجته الروحية.

راهب آخر كرس حياته للشباب الضائع المنغمس في المخدرات وفي الرذيلة والإجرام، وجمعهم حوله وعاش وسطهم وصار يعمل معهم أعمالاً يدوية يقتاتون منها. ولقد انتشرت مبادئه في كل العالم حتى صارت له فروع في بلدان كثيرة تنقذ الشباب من الضياع والجريمة والانحراف.

والأخ الذي كان مسئولاً عن مضيعة الدير، وكان بسيطاً جداً ويتعامل مع كل ضيف على أنه شخص السيد المسيح... ومرة طرق باب المضيعة طفل صغير جميل، فرح به الأب الراهب وحمله الى الداخل وأسرع لكي يحضر له شيئاً لذيذاً وإذ به يكتشف أن الطفل اختفى لأنه كان السيد المسيح نفسه، ففرح الراهب جداً وتأكد حقاً أن السيد المسيح من الممكن أن يزوره في شخص أي ضيف.

وقديس آخر عاش وسط القبائل العربية في الجزائر، وكان يأكل معهم ويعيش مثلهم، وقدم لهم صورة المسيح بشكل طبيعي معاش وأثر فيهم جدًا وأخيرًا مات شهيدًا على يد بعض المتعصبين منهم.

ورسول البُرص الذي أصر أن يكرس حياته لخدمة مرضى الجزام في مستعمرتهم المعزولة. وكان يعظهم ويخدمهم ويأكل معهم ويخفف من آلامهم ويزرع الرجاء في قلوبهم ويعددهم للموت بصورة مسيحية جميلة... وأخيرًا أصيب بالجزام ومات ودفن في تلك الجزيرة النائية.

وماذا نقول عن ذلك المسيحي الذي قُبض عليه ظلمًا وُجِّع به في السجون النازية أيام الحرب العالمية. وحدث أن هرب أحد المساجين وكانت العقوبة إعدام عشرة مساجين كل يوم إلى أن يعترفوا عمن ساعد ذلك المسجون على الهرب. وفي يوم انهار مسجون من ضمن العشرة لأن له

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

أسرة وأولادًا، وإذا بذلك المسيحي يقدم نفسه للموت عوضًا عن هذا الرجل. وبالفعل أُعدم عوضًا عنه.

وتوماييس الزوجة المخلصة التي قدمت حياتها للحفاظ على شرفها، وصار كل من يتشفع بها في حروب النجاسة ينال قوة عجيبة.

والزوجتان المذكورتان في قصة القديس مقاريوس الكبير واللتان كانت لهما درجة قداسة عند الله تساوي قداسة مقاريوس الكبير.

وسمعان الخراز الذي نقل جبل المقطم بصلاته، وبرسوم العريان، والأنبا رويس العظيم...

من يستطيع أن يحصى كل أنواع ودرجات القديسين .
إذا لا تصغر نفس أحد أو يظن أن القداسة قاصرة على صانعي المعجزات أو المشهورين أو ذوي الرتب الكهنوتية أو خلافه.

القداسة هي نقاوة القلب من الداخل. أية معجزات صنع القديس يوحنا المعمدان أعظم مواليد النساء؟ وأية معجزة صنعها لعازر المسكين، أو بائية التائبة؟ المعجزة الحقيقية هي معجزة القلب من الداخل، هي تحول القلب من الخطية الى حياة البر، هي إقامة القلب من نتن الخطية وعبوديتها، هي تحرر الإرادة من الاستعباد للشيطان والعادات القبيحة. هي نصره الإنسان على ذاته وعلى لذاته.

القداسة عمارة تبنى طوبة فوق طوبة وموقف وراء موقف وحدث بعد حدث ويوم بعد يوم. كما ينمو الجسد إلى كمال الصحة، وكما ينمو العقل بالمعرفة والثقافة والعلم، هكذا الروح تنمو بوسائل النعمة لتبلغ قامات عالية في البر والقداسة.

بعد كل ما ذكرناه، وكل ما لم يسمح المجال أن نذكره، نسأل السؤال الهام:

من هم القديسون إذا؟

ونجيب باختصار في نقاط محكمة :

١- القديسون هم الذين أدوا دورهم بصورة صحيحة في الشركة مع الروح القدس. كلنا دخلنا في هذه الشركة من خلال سر المعمودية وسر الميرون ومن خلال ممارسة باقي الأسرار. ففي هذه الشركة على الإنسان دور يجب أن يقوم به، وعلى الروح القدس دور لا يقصر عنه أبداً. الإنسان عليه أن يجاهد، ويتوب، ويصلي، ويصوم، ويعترف، ويهرب من الخطية ويصحح مساره... إلخ والروح القدس يبرر ويغفر ويشجع ويعطي حكمة واستنارة ورجاء... إلخ.

فالقديس هو الذي أدى دوره باجتهاد في هذه الشركة المقدسة مع الروح القدس وبالتالي تمتع بثمار هذه الشركة التي هي ثمار الروح القدس، "مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلَامٌ، طَوْلٌ أُنَاةٌ لُطْفٌ صِلَاحٌ، إِيْمَانٌ. وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ" (غل ٢٣: ٥، ٢٢).

٢- القديس هو الإنسان الذي في كل موقف على حدة يُخضع إرادته لإرادة الله. في البداية يحتاج إلى تغصب في هذا الأمر حتى يصير سهلاً وتلقائياً. لا يصنع شيئاً يخالف إرادة الله، مهما كان صغيراً، ويدقق في ذلك.

٣- القديس هو الإنسان الذي يحاسب نفسه باستمرار أولاً بأول. وهكذا يقدم توبة فورية ثم يعترف بخطاياہ بانتظام على الأب الكاهن ويتناول من الأسرار المقدسة. عملية التنقية المستمرة هذه يجب أن تشمل خطايا الفكر والنية والحواس والقلب والفعل ... وكل شيء. نقاوة القلب هي الطريق إلى القداسة، ومقاومة أية خطية في بدايتها سهلة جداً عن أن نتركها تنمو.

٤- القديس هو الذى يدرب حواسه على الفصل بين الخير والشر (تقديس الحواس). يستخدمها في الخير ويعطلها في الشر بسرعة وبإصرار (يهرب لحياته).

تقديس الحواس يقود إلى طهارة الأفكار وبدورها تقود إلى نقاوة القلب التي هي القداسة.

٥- القديس هو الذى يرتب أولوياته بصورة صحيحة. الصلاة أولى من الحديث مع الناس، قراءة الكتاب المقدس أولى من قراءة الكتب والمجلات والجرائد، الذهاب الى الكنيسة أولى من الذهاب إلى أي مكان آخر، حياتي الروحية أولى من الجسدية، طاعة الله أولى من طاعة الناس، الأبدية أولى من الأمور الأرضية الزائلة، خلاص نفسي أولى من أي شيء في العالم... وهكذا. لذلك نجح القديسون في التوفيق بين الصلاة والعمل، بين السكون والكلام المفيد، بين الحكمة والبساطة. عرفوا ما هو الأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية، وأعطوا كل شيء حقه الواجب دون أن يخلطوا بين الأمور. هذه نقطة هامة جداً يجب أن نراعيها، لأن أوقاتاً طويلة نقضيها في أمور إن لم تكن ضارة هي على الأقل غير نافعة ومضیعة للوقت. القديسون ما كانوا يقضون لحظة إلا في

أمر هام ومفيد وضروري. ياليتنا نراجع هذه النقطة بالذات مع أنفسنا.

٦- القديسون هم من تدربوا على الصلاة الدائمة (صلاة يسوع: يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ) وكرروها باستمرار فَتَحَصَّنَ الذهن بها وانشغلوا بها عن التفاهات والمشغوليات الفارغة وعن طياشة الذهن. تلذذوا بها وشبعوا بها، واكتفوا ولم يعد يعوزهم شيء، يكفهم الوجود الدائم في حضرة حبيهم ويكفهم الهذيل في اسمه المبارك، اسم ربنا يسوع المسيح.

٧- القديسون هم الذين تدربوا على الوجود الدائم في حضرة الله. يقولون في أنفسهم باستمرار: الله يراني، الله يسمعني، الله يحس بي. وبذلك تفادوا خطايا كثيرة وانتصروا على حروب روحية في مهدها. ياليتنا ندرّب أنفسنا باستمرار على هذا الفكر لأن الله فعلاً موجود في كل مكان ويرانا ويسمعنا ويفحص دواخلنا ونياتنا.

٨- القديسون هم الذين اقتنوا خبرة الحروب الروحية، عاشوا حياة التلمذة الحقيقية، وتدريبوا على أسلحة الروح. عرفوا أن الاتضاع هو الذي يغلب الشياطين. عندما رأى أبو مقار الكبير فخاخ الشياطين المتعددة وانزعج وسأل: من يخلص من كل هذه؟ جاءه الصوت: "المتضعون يفلتون منها". وهكذا تدرب القديسون على فنون الحرب الروحية وسلمونا مفاتيح النصر في هذه الحروب.

فياليتنا نتلمذ على أقوالهم وسيرهم لنسلك على هدى خطاهم ونصل إلى بر الأمان ما وصلوا لنتمتع معهم إلى الأبد بالوجود في حضرة السيد المسيح الذي له كل المجد والكرامة والسجود مع أبيه الصالح والروح القدس. آمين.

تدرب على حياة القداسة

فكر وتأمل:

١- إن القداسة متاحة لك أنت شخصيًا... وأنها ليست وقفًا على شخصيات معينة أو أماكن معينة أو أزمنة معينة... أنت مدعو أن تكون قديسًا في زمانك ومكانك ووضعك الخاص بك. السماء ممتلئة بالقديسين من كل مكان وزمان ونوع ولغة وعمر... «بَعْدَ هَذَا نَظَرْتُ وَإِذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ، مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَاللُّسِنَةِ، وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْخُرُوفِ، مُتَسَرِّبِينَ بِثِيَابٍ بَيْضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ. وَهُمْ يَصْرُخُونَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ: «الْخَلَاصُ لِإِلَهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخُرُوفِ... هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الصِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ غَسَلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوهَا فِي دَمِ الْخُرُوفِ... لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْحَرِّ، لَأَنَّ الْخُرُوفَ الَّذِي فِي وَسْطِ الْعَرْشِ

يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنْابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمْسَحُ اللَّهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عَيْنُونِهِمْ» (رؤيا ٧: ٩-١٧).

إذا أنت شخصياً لك نصيب في هذا المجد كله... ذلك إذا تبت وببضت ثيابك في دم المسيح، بالتوبة والاعتراف والتناول، وبالجهد الروحي المستمر. الله أب للجميع وخالق للجميع و«يُرِيدُ الْجَمِيعَ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ» (مزمور ١٣٩: ١٣).

٢- اعلم أن القداسة تكمن في الأفعال اليومية البسيطة، وفي الأعمال اليومية الحياتية مهما كانت صغيرة وعادية وروتينية، حافظ على نقاوة قلبك في كل فعل تفعله، وعلى نقاوة قصدك، وطهارة نيتك، وقم بعملك بأمانة وإخلاص مهما كان عملك بسيطاً أو يبدو لك تافهاً، الله ينظر إلى أمانتك، ومتى رآك أميناً في القليل يقيمك على الكثير: «فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالْأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأَقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. ادْخُلْ إِلَى فَرْحِ سَيِّدِكَ» (متى ٢٥: ٢١). وتقول الأم تريزا خادمة الفقراء

في الهند: «أعمل الأعمال الصغيرة ولكن بمحبة كبيرة»...
 فالله ينظر إلى عظم محبتك ونقاوة قصدك لا إلى الأفعال
 ذاتها. ألم يمتدح السيد المسيح الأرملة التي ألقت فلسين
 في الخزانة أكثر من أغنياء كثيرين!!!

٣- اعلم أن الرب سوف يساعدك في طريق القداسة.
 هو خلقك وأعدك بكل ما تحتاج إليه لكي تعيش معه
 في قداسة وبر. ومنذ ولادتك تعهدك برعايته وتعليمه في
 البيت والكنيسة. وهو مستعد أن يسامحك عن كل أخطائك
 متى تبت ورجعت إليه كالبن الضال: «فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ:
 ... أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي أَخْطَأْتُ إِلَى
 السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ... فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ» (لوقا ١٥: ١٧-٢٠).

٤- اعلم أنك لن ترضي الله إلا إذا سلكت في طريق
 القداسة والبر. لا شيء يفرح قلب الله أكثر من توبتك
 ورجوعك إليه: «أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ
 بِخَاطِيٍّ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًا لَا يَحْتَاجُونَ
 إِلَى تَوْبَةٍ» (لوقا ١٥: ٧). «هَكَذَا أَقُولُ لَكُمْ يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ

مَلَائِكَةِ اللَّهِ بِخَاطِيٍّ وَاحِدٍ يَتُوبُ» (لوقا ١٥: ١). وقال الأب لابنه الكبير بعد رجوع أخيه الضال: «كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْرَحَ وَنُسْرَلَنَّ أَخَاكَ هَذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ وَكَانَ ضَالًّا فُوجِدَ» (لوقا ١٥: ٣٢).

٥- تأمل حياة القديسين الذين كانوا خطاة في بداية حياتهم، وكيف ساعدهم الله على تغيير حياتهم حتى صاروا قديسين وقديسات كبارًا في الكنيسة. وصارت حياتهم درسًا ونموذجًا لعمل الله مع من يطلب التوبة ويجاهد فيها: «فَأَطْلُبْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بَرَأْفَةَ اللَّهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ عِبَادَتَكُمْ الْعَقْلِيَّةَ. وَلَا تُشَاكِلُوا هَذَا الدَّهْرَ بَلْ تَغَيِّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللَّهِ الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ» (رومية ١٢: ١، ٢).

٦- كرر باستمرار هذه الآية القصيرة: «بِرَأْيِكَ تَهْدِينِي وَبَعُدْ إِلَى مَجْدٍ تَأْخُذْنِي» (مزمور ٧٣: ٤). وكمل وقل: «مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ؟ وَمَعَكَ لَا أُرِيدُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ» (مزمور ٧٣: ٢٥).

اعلم أن الله هو الذي يقدس الإنسان، وروحه القدوس هو الذي يرشد ويدبر حياة الإنسان: «أَرْسَلُ نُورَكَ وَحَقَّكَ هُمَا يَهْدِيَانِي وَيَأْتِيَانِي إِلَى جَبَلٍ قُدْسِكَ وَإِلَى مَسَاكِينِكَ» (مزمور ٤٣: ٣). «اغْتَسَلْتُمْ بَلَّ تَقَدَّسْتُمْ بَلَّ تَبَرَّرْتُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ وَبِرُوحِ إِلَهِنَا» (١ كورنثوس ٦: ١١). إذا أنت لست وحدك، بل أنت محمول على أيدي الملائكة والله يساعدك على طريق القداسة.

٧- كن يقظًا جدًا لنفسك، ولا تسمح بأية أخطاء أو خطايا أو عادات أن تتملك عليك مهما كانت صغيرة. فهذه الثعالب الصغيرة تتسلل إلى حياتك، وتدرجياً تُفسد كرمك كله: «خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُومَ لِأَنَّ كُرُومَنَا قَدْ أَقْعَلَتْ» (نشيد ٢: ١٥). يجب أن تكون قداستك بناءً محكمًا من كل جانب.

٨- حاول أن تنمو باستمرار في القداسة ولا تكتفي بقدر معين منها. فطريق القداسة يستمر طول العمر، ولن يبلغ أحد نهايته أبدًا «كُونُوا قِدِّيسِينَ لِأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ»

❖ حياة القداسة ————— الأنبا سارافيم ❖

(١ بطرس ١: ١٦). نحن مطالبون بأقصى درجة من القداسة حسب قامة كل أحد، وحسب ظروفه الخاصة. لا توجد مقاييس ثابتة للقداسة، لكنها تختلف من أحد لأحد.

٩- اعلم أنك بدون القداسة لا يكون لك نصيب مع المسيح: «إِتَّبِعُوا السَّلَامَ مَعَ الْجَمِيعِ، وَالْقَدَاسَةَ الَّتِي بِدُونِهَا لَنْ يَرَى أَحَدُ الرَّبِّ» (عبرانيين ١٢: ١٤). القداسة تجعلنا مشابهين لله، وأهل بيت الله، وترجعنا إلى صورته ومثاله.

١٠- القداسة يجب أن تكون شاملة: في الفكر والقلب والمشاعر والمعاملات والحواس، وكذلك في القرارات والأساليب والسلوكيات. وكذلك يجب أن نظهرها في كل وقت وفي كل تصرف. نكون قديسين من الداخل ومن الخارج.

١١- لا تلتفت كثيراً إلى آراء الناس وانتقاداتهم وتعليقاتهم. سر في طريق القداسة بثقة واتكال على الله الذي تحرص على مرضاته. كما قال أحد الحكماء:

«لا تضع سلامك في أفواه الناس». الذين لا يسلكون مسلكك سوف يحاولون تعطيلك. فلا تتعطل.

١٢- حاول أن تنقى من أخطائك واحدًا فواحدًا،
لئلا ترتبك وتيأس. صدق أن طريق القداسة ليس صعبًا
أو مستحيلًا إلا إذا اتكلت على نفسك لوحده ونسيت معونة
الله معك. «غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ»
(لوقا ١٨: ٢٧). وتشفع بالقدسين والقديسات لكي يساعدوك
على حياة القداسة التي سلكوها على الأرض. الله قادر
أن يعمل بالكثير وبالقليل: «لَأَنَّهُ لَيْسَ لِلرَّبِّ مَانِعٌ عَنْ أَنْ
يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ» (١ صموئيل ١٤: ٦).

١٣- حاول باستمرار أن تكون فرحًا بالرجاء أثناء
مسيرتك في سكة القداسة. مهما اشتدت الحروب
والمضايقات لا تُحبط ولا تكتئب، بل أنظر إلى الله الذي
يؤازرك بنعمته باستمرار. لا تعتمد على ذاتك بل على قوة الله
التي معك، وعلى وعوده الكثيرة بأن لا يتخلى عنك أبدًا.

١٤ - طريق القداسة هو الباب الضيق والطريق الكرب
الذي لا يستمر فيه إلى النهاية إلا القليلون: «مَا أَضْيَقَ الْبَابَ
وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ
يَجِدُونَهُ!» (متى ١٤: ٧).

إصدارات المؤلف

كتب		
+ الأبوّة الروحية + طفولة يسوع المسيح (ترجمة)	+ الحرارة الروحية (ترجمة) + رسائل رهبانية (ترجمة)	+ تربية الأطفال (ترجمة) + الغني والفقير (ترجمة)
+ الأب إيسيدور (ملح الأرض) + الأواني الخزفية "الصلاة الفردية" (ترجمة)	+ الرسائل السبع لملائكة الكنائس السبع التي في آسيا + الميامر النسكية لما إسحق السرياني (طبعة دير البرموس)	
كتيبات		
+ القديس يوسف النجار	+ صلاة يسوع (طبعة مزبدة)	+ القوة
+ قصة السقوط في الخطية	+ القانون الروحي	+ الرحمة
+ كرامة الجسد والأمراض	+ حياة القداسة	+ التسبيح
+ تأملات في مثل الابن الضال	+ حياة التسليم (طبعة مزبدة)	+ الشهداء
+ تحويل الصياد إلى تابع للمسيح	+ مجروح في بيت أحبائه	+ الصمت المقدس
	+ كرامة المرأة قديمًا وحديثًا	+ الغضب والإدانة
	+ مهارات في حل المشكلات الزوجية (طبعة مزبدة)	
نبذات		
+ أخلى ذاته	+ الصوم	+ محاسبة النفس
+ من كنوز الآباء عن العذراء مريم	+ السقوط	+ المسيح بكر القانمين من الأموات
تحت الطبع		
+ باقة ورود من تعاليم الآباء	+ نساك معاصرون على جبل آثوس (جزءان)	
+ شهداء روسيا	+ أمهات راهبات من روسيا	+ حمامة البرية
+ القديسان جيروم وروفينوس	+ الأب غبريال	+ الصلاة الربية
+ اعترافات الأم تريزا "قديسة كالكوتا"	+ الإرشاد الروحي	+ الفيلوكاليا الروسية الصغيرة ج ١
+ العيش ببساطة للقديس يوحنا ذهبي الفم		+ الفيلوكاليا الروسية الصغيرة ج ٢
+ ليس حب أعظم من هذا "تعاليم وإرشادات الأم تريزا (أم الفقراء)"		+ التطويبات

القديسون أناس سلكوا
طريق القداسة ووصلوا
إلى السماء . وطريق
القداسة مطلوب من
الجميع .

والقداسة ليست
شكلاً من الخارج أو
مجرد مجموعة ممارسات
روحية أو التزامات
أخلاقية ، إنما هي أساساً
نقاوة القلب من
الداخل .

وكلما يتقّى القلب
فإنه يتعامل مع الله
بوضوح أكبر و يتمتع
بمحبة الله بقدر أعظم ،
وهذه

هي القداسة

« كُونُوا قَدِيسِينَ لِأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ » .

تطلب من مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالإسمايلية

٠١٢٢٧١٥٠٢٤٢ - ٠١٢٢٤٦٢٦١٤١